نزوع الأدب

بين الانضواء والالتزام

بقلم داود جرجس درويش

أحسب أن الأدب الغربي لو لم ينتقل بين حلقات المدارس الأدبية المتسلسلة لكان قضي عليه منذ زمن ، ولما سمعنا بنهضات ادبية وباختلاجات تطورية وابتكارات جديدة. وما تنوّع المدارس إلا الخروج عن تلك الحلقة المغلقة ، « القوقعة » ، الى الحلقة التالية وقد فتحت كواها على العالم الفسيح والحياة المحيطة ، تستمد منها نوراً ودفئاً وغذاء .

ومثل ذلك حدث في هذا الشرق العربي ، يوم انحدر الأدب من برجه العاجي الى السوق ، ماراً بالشارع ، معرّجاً على المعمل .. كان يناجي القمر ليلاً ذاكراً أحبّته والصحب . . وعاديات الزمن ؛ فاذا به في غمرة العمل يكدح فيجوع ،ويزرع ليحصد غيره ، ويختزن ليُسلب .. ولقد كانت حياته فيما سلف « كن فيكون » وإذا به تجاه آية رددتها الأجيال لأبيه الأول وطالما رنت في اذنيه فلم يَعِها قبل اليوم : « بعرق جبينك تأكل خبزك » .

لقد عمّت المعرفة والثقافة هذه الأجيال الطالعة من مختلف طبقات الشعب . وانتقل الوعي والأدب ..وعي الحياة وادب الجماهير الكادحة ، من أباطرة المال المترفين الى طواة حفاةعراة ، فكان لنا هذا الأدب: ادب الخبز واللحم والدثار ، ادب الرحمة والرأفة والاخاء ، او قل ادب الشرع والحقوق والعدالة الاجتماعية .. وإذا بالمجتمع جله انضواء فكري تحت لواء الاقتصاد والسياسة .. وانضواء ادبي الى الفكر والاقتصاد .. لبناء عالم تتساوى فيه الحظوظ والحقوق ، ومجتمع يصلح قاعدة لانطلاق جديد بعيد المدى نحو الأبعاد الأفقية للتطور المقبل .

هذا هو سرّ الانضوائية في الأدب ومبرّرها الآنيّ : ضرورة اجتماعية ملحّة لانعتاق الانسان من عبودية المادة وفكاك له من أغلال الآلة ، مرجعها الى تخاذل الأجيال السابقة ، لا يصح للأدب ان يتصامم عن سماع شكواها وتلبية قضائها الملح . بقي ان نرى الى اي حد ننصت لها ونثق بالحاحها ، وكيف نوفق بين نشازها وتضارب الحلول التي تقدمها لنا .. فنحن اذا قلنا أدباً انضوائياً لسنا نعني مدرسة ادبية معينة .. فالأدب الانضوائي يتميز عن سواه بانه « مدارس ادبية » ومدارس مختلفة الى حد التناقض .. فهو إذاً لا يمت الى بعضه بأية صلة سوى صلة « الانضواء » العامة . .

نحن لا نعجب ان تكون الانضوائية في الأدب نتيجة حتمية منطقية لطغيان السياسة ، المستمدة من الاقتصاد ، على الفكر والفلسفة والعلوم وبالتالي على الفن والأدب . لأننا لا ننكر ان الانضوائية في الأدب تعبّر ولو في الظروف الحياتية الراهنة عن حاجات وافتقارات دنيا ملحة في قاعدة المجتمع ، لا يمكن للأدب الحي ان يتعامى عنها .. أما ان تكون هيمنة الاقتصاد على السياسة والشرع والاجتماع وهيمنة السياسة والشرع والاجتماع على الفكر والادب والفن ،من مقتضيات الحركة التطورية التاريخية؛ وأما ان تكون تلك الافتقارات المادية افتقارات خالدة وان تكون الانضوائية في الفكر والفن والأدب الى التيارات الاقتصادية السياسية ، مهما تطورت الأحوال ومهما تعاظم تحرر الانسان من ربقة الطبيعة والآلة والرأسمال ، فهذا مايخط نقطة الخلاف بيننا وبين الانضواء مهما كان حقله ادباً او فكراً او اجتماعاً ..

انا أوافق الشيخ سعيد تقي الدين على انه « لا خوف من العقيدة على الأدب » فهي تجلوه « وتجوهره » .. او بالأصح فأنا أوافقه على ان العقيدة كمفهوم تطوري أقصى ، لا حدود تحده ولا سياج يضرب من حوله ، تجلو الأدب وتجوهره . . وأنا أوافق ايضاً على ان العقيدة ، أية عقيدة، تجوهر الأدب المنعزل سابقاً في برجه العاجي ، كما كان ادب الأستاذ سعيد — ليسمح لي بهذه اللمحة — « قبل الوثبة » ، وكما كان ادب عمر فاخوري « قبل الحرب » . .

واما ان تجلو الأدب وتجوهره عقيدة محدودة الجوانب تدعو الى حركة اجتماعية ضيقة ضمن إطار جغرافي مخطط على بقعة ضامرة من هذا الكوكب الصغير؟ وأما ان تجلوه وتجوهره عقيدة زوائية تنظر الى الكون والانسان من خلال منظار المادة والحسّ والاحتكاك الجسماني، وتأبى ان تنظر اليهما نظرة قصيّة صميمة من خلال الفكر والشعور والتسلسل العقلي ، فهذا ما يدفعه الواقع ويجلو زيفه التطور .. التطور المقبل من الخضم

في أقاصي الأرض ليصبّ في المحيط في أقاصيها.. التطور الجاذبي المبني على اساس من تناقض وتلازم صميمين للحركة التطورية الصاعدة المنتشرة النابعة عن قوة ديناميةٍ وحيوية فوارة ان منها حركة المادة السلبية الميكانيكية المفتقرة الى محرّك .

وبما انني تعديت الخلاف الأدبي مع الانضوائية الى الخلاف العقائدي — والانضوائية عقيدة وفكرة قبل ان تكون ادبا — فلأتابعن توغلي حتى النهاية . ولأوافقن مع عمر فاخوري على « ان الشرط الأساسي اولاً وآخراً هو ان يستمد « المرء عناصر فنه وادبه من الينبوعين اللذين لا يشحّ سلسبيلها أبداً: أعني الكون والحياة : كون لا تنفد روائعه ولا تُحد صوره ، « وحياة لن تزال متطورة متحولة فكأنه بعثٌ مستمر في خلق متجدد » . .

انه لتعبير رائع عن حقيقة الأدب ومهمة الأديب كقاعدة عامة وكمبدأ أول : ولكن القضية باتت اليوم خلافاً دقيقاً ليس حول قواعد عامة ومبادىء أولى في الأدب بل حول مفهومنا من تلك القواعد والمبادىء : اعني حول مفهومنا نحن من مدلول الكون والحياة والتطور كأساس فكري للأدب . . ففي محتوى ذلك المفهوم تكمن حدودية نظرتنا او شمولها الى الكون والحياة ، وبالتالي حدودية نظرتنا او شمولها الى الأدب. الأدب التعبير الصادق عن حقيقة الكون والحياة . الأدب الانعكاس الأخاذ عن حقيقة الحركة التطورية في الطبيعة والمجتمع، عن تفاعلاتنا النفسية وتجاوبات المجتمع التي هي من صميم الحركة التطورية الشاملة .

أنا أعتقد أيضاً مع الأستاذ سالم دياب أن مسؤولية الأديب ككائن إجتماعي تحتم عليه « اعتناء مستمراً بمشاكل الحياة العامة، يهيب به الى النزول الى الساح يدفعه الى غمرة الآلام التي تعانيها الجماهير الكادحة كما يرسم الآلام نفسها ، ويصف أسباب الامراض الاجتماعية ، ويعطي علاجاتها الشافية » . ولكنني أنكر أن يكون ذلك الاعتناء وذلك النزول الى الساح هما الادب كل الادب .. فضلاً عن انها كما أسلفت مهمة موقتة ناجمة عن ظروف استثنائية تألبت فيها حاجات دنيا وافتقارات بدائية ملحّة ؛ مع العلم بالاضافة الى ذلك اننا لم نتفق بعد على « العلاج الشافي » والحلول المقدّمة .

أجل ، قد ينزل إلى السوق الادب . ولقد يسير الادب في الشارع ويخرج إلى ضواحي المدن حيث الريف المتعب المحزوم. وقد يصعد إلى برجه العاجي ليلاً ليرصد النجوم أو البشر . ولكنه لا يتمركز في السوق يحوّله أوكان حرب يقذف به السلطة . ولا يذرع الشارع جيئة وذهاباً ليعثر على تابع جديد يحشره في زوبعة الصراع ضد كل من لا يري الحياة من خلال منظاره . .

قد يكون لذلك الادب حظ من الحياة ، حياة السوق والشارع . ولكنه لا يمكنه أن يعي الحياة كل الحياة . الحياة ليست في السوق أو على طول الشارع أو بين جدران المعمل فحسب ؟ انها هناك وفي أمكنة عدة سواها . هي في كل مكان من هذه الارض وهي في كل قلب من هذه البشرية . والادب الحي هو صورة حية للحياة بكليتها . والادب الصحيح ، الادب المعبّر ، الادب المتمثل ، الادب الحياة ، هو الذي يعكس وعي الحياة بلبّها ومعانيها وأسرارها الغائصة ، روحها ومادتها ، شرقها وغربها ، قلبها وذراها وأسافلها . .

الادب الرفيع يسمو بالشعب المدرك إلى السدة ، لا يهوي بالسلطة المتخاذلة إلى الحضيض .. والشعب المدرك الواعي بفضل أدبه الحي المتفاعل المعبّر عن حركة الحياة المستمرة ، يقيس الهوّة التي تفصله عن تلك السلطة . ويعلم حينئذ كيف يخذلها . فليس للأدب أن يؤلبه عليها تأليباً كالقطيع . وليس للأدب أن يدفعه اليها دفعاً كمن ليس فيه نابض من حيوية أصيلة .

ذلك الادب لا يمكن ان « يتجند » وينضوي تحت لواء السياسة والاقتصاد وهو أسمى منهما بمراحل .. كما أنه لا يمكنه ان ينضوي إلى لواء اية عقيدة اجتماعية او فلسفية محدودة .. لان انضواءه ذلك يحد من حريته في التحليق ، ويجعل منه سجيناً في قفص ، وليكن من ذهب ..

لا يمكن للادب ان يكون منضوياً لانه لا يمكن له ان يكون حدودياً محصوراً ضمن إطار أو سياج . فالأدب مثله مثل أية ناحية من نواحي النشاط الانساني ، تعبير حياتي .. والحياة كما قلنا تطوّر ، والتطور نزعة صاعدة متقدمة متسعة متسارعة دوماً ؛ لاتقف عند حلقة او حدود ، ولا يحجز انطلاقها قيود أو سدود .

وما حدود « المرحلة » التطورية بحدود خالدة .. بل وليست بالحدود الواقعية ، انما هي حدود ادراكية . هي الحدود التي يبلغ اليها الانسان في ادراكه للواقع التطوري وعبّر عنها بـ «عقيدة» او « خلاصة » او « مفهوم » . وما الواقع التطوري بمنتظر

لادراك الانسان له ليتابع جريه نحو آفاقه القصوى ..

ومن ذلك نخلص الى القول بان نقطـــة الضعف نراها في الانضوائية لا تكمن في « تبعية » الادب لفكرة او « عقيدة » انما تكمن في « حدودية » تلك الفكرة.. وفي « تقييد » مصادر الادب وينابيع الفكر ضمن اطار « الواقع الادراكي » المتخلف دوماً عن الواقع الوضعي الحياتي ، المتطور دوماً ، مهما كان ذلك الادراك نافذاً واعياً مستوعباً .

وبعد فاننا لسنا نرى في الانضوائية خروجاً على معنى الأدب. انما نرى ثمة انزواء ضمن قوقعة تموج من حولها بحور من الأدب الصافي . وانما نرى فيها شطراً من القافلة قد حطت رحالها عند محطة معيّنة تدعي انها هي المحجـة والمآل ، وتدعو الرفاق الى التوقف لديها عن المسير .

وهل من ضرورة لان ننوّه بانه ما من نظرة انسانيـة في مجال التطور المستمر يمكنها ان تعبّر عن الكون والحياة تعبيراً صحيحاً قائماً على كلّية النظرة وشمول الاستيعاب وقصوّ التنبؤ ! وإلا كانت تلك النظرة هي خاتمة المطاف التطوري . وخرافة ختام التطور كخرافة الكمال والاطلاق والدغماطية في مجالات النشاط الاجتماعي ، لم تعد مستساغة مريئة بعـد ان اثبت العـلم صحـــة نظريتي التطور والنسبية . ومن ذلك نقضي بضرورة انعتاق الأدب والفكر عن الحلقـة المغلقـة . وبوجوب انسيابه طيّ خطوط الحلقة المفتوحة نحو مفهوم متجدد ، وتعبير يستمد نسيجه من ذلك المفهوم. تلك سنة الكون الخالدة : وكل خلاصة فلسفية او اجتماعية او ادبية تحاول ان تتحدى سنة الكون هذه يكون نصيبها الهزال و « الانيميا » ثم التحطيم والاندثار.

ولا بد لنا في ختام البحث عن الانضوائية ان ننوّه بفضلها في المساهمة في اعادة دفقة الحياة الى شرايين الادب القديم وقد كاد يحتضر . ذلك الادب البرعاجي الذي ابى إلا ان ينفصـل الأدب عن ينابيعه الفكرية ويدعه نهراً جارياً ولا ينبوع يمدّه بمعينه الفوار .. وما ذنب الانضوائية إذا هي لم تكمل الوثبـة فراحت تربط الينبوع الى بحيرات مغلقة تستمد منها سحباً ومنها تستدر غيثاً !. فلقد فتحت اعيننا تلك البحيرات ، ولمّا ينضب معينها ، الى الخضم الواسـع المتداخـل .. فكانت هي الحلقة الوسطى ، ربطت بين ادب مضى وادب يُقبل .. فلتنعم بالحياة هنيهات عامرة تلك السلسلة الغنيـة بالحلقات المنتشرة عبر الآفاق ؛ ترسل الى الحياة عيوناً تتفحص والى الكون اذرعاً تمتد لتعانق اللانهاية ..

★

أدب الالتزام

لقد كدت اذهب في نقدي لمذهب الالتزام الى الحجج التي ابديتها في صدد الانضوائية . وكدت اذهب الى الادعـاء بان الالتزام مدرسة انضوائية جديدة لا فرق بينها وبين اية مدرسة انضوائية اخرى إلا الفرق الذي يفصـــل بين فكرة وفكرة يُدعى الأدب للانضـواء اليها ؛ وان يكن الالتزام في الظاهر منفتحاً على الفسحة وان يكن يريد ذاته خطوة متحفزة للخروج من ربقة الانضواء الى الاجواء المترامية . أوليس حلقة جديدة لمّا تكتمل شروط انغلاقها؟ لمّا تنضج بعدُ فلسفتها ؟ أليست في طريقها ضمن خطوط ومنعرجات لم نعهدها نحن سابقاً ، الى رسم الحدود النهائية للحلقة الجديدة سوف تغلق عليها كالشرنقة ؟

على ان ما تطالعنا به مجلة «الآداب» من صورة لمبدأ الالتزام كما تستوعبه رئاسة تحريرها ، يدعنا في امل كبير ، ألا تنغلق الحلقة الالتزامية على نوع من الأدب الانضوائي جديد ، يسلك طريق الارتواء من البحيرة الركود ..

ولست اتوقف عند العرض الاول لهذا المبدأ حيث يقـول الاستاذ سهيل ادريس :

« تؤمن المجلة بالأدب نشاطاً فكرياً يستهدف غاية عظيمـة هي غاية الادب الفعال الذي يتصادى مع المجتمع ، اذ يؤثر فيه بقدر ما يتأثر به .. فينبغي الا يكون بمعزل عن المجتمع الذي يعيش فيه . وهدف المجلة الرئيسي ان تكون ميداناً لفئة اهـل القلم الواعين الذين يعيشون تجربة عصرهم ويعدّون شاهـداً على هذا العصر . ففيما هم يعكسون حاجات المجتمع العربي ويعربون عن شواغله ، يشقون الطريق امام المصلحين لمعالجـة الاوضاع

الكتب الادبية والمدرسية على اختلاف انواعها
احدث المطبوعات ومجلات الازياء لعام ٩٥٣
مبيع واصلاح عموم اصناف اقلام الحبر
القرطاسية بأنواعها وادوات المكاتب
كل ذلك تجدونه دائماً في
بيروت شارع سوريا **مكتبة هاشم** ☎ ٨٣/٢٦

بجميع الوسائل المجدية » (الآداب، العدد الاول، رسالة الآداب)

ولست اريد ان انحدر مع الاستاذ البعلبكي في شرح الالتزام الى نسخة جديدة من الانضواء. الانضواء الى السياسة. فيه للواقع صور « بشعة » « معتمة » وفيه « للثأر » برنامج جاهلي — صهيوني معاً .. هو اقرب ما يكون الى « العين بالعين والسن بالسن »

اسارع اذاً الى الجناح الثاني للفكرة الالتزامية كما تعبر عنها مجلة « الآداب » في عدديها الاول والثاني :

« ... على ان مفهوم هذا الادب سيكون من السعة والشمول حتى يتصل اتصالاً مباشراً بالادب الانساني العام ، ما دام يعمل على ردّ الاعتبار الانساني لكل وطني وعلى الدعوة لتوفير العدالة الاجتماعية له ولتحريره من العبوديات المادية والفكرية . وهذه غاية الانسانية البعيدة . وهكذا تسهم المجلة في خلق الادب الانساني الذي يتسع ويتناول القضية الحضارية كاملة . وهذا الادب الانساني هو المرحلة الاخيرة التي تنشدها الآداب العالمية في تطورها .. »

الى ان يقول : « ... واننا لنعني بكلمة الفرد كل فرد . سواء أكان منتسباً الى مجتمعنا القومي ام كان متصلاً بالمجتمع الانساني العام . وهذه هي مرحلة الشمول التي يجب ان يبلغها الادب مهما اعترضت طريقه الحواجز والعقبات . »

نحو ادب الشمول

ولنختصر الطريق نحن الى تلك المرحلة الاخيرة من التطور، وان يكن في « واقعنا الادراكي » اولاً . ولنعدّ العدة لمجابهة متطلباتها . ولنوجه شطرها انظارنا وخطانا .. ولندعُ انفسنا ومحيطنا والعالم باسره الى هذا الادب التطوري الاقصى ، صفته الغائية هذا التطلع الى الشمول ؛ وهذا النزوع المستمر الى اقصى الآفاق .. وسبليته حلقات منفتحة ؛ مرتبطة في سلاسل متتابعة، منتظمة في مراحل مستمرة، متجهة نحو الشمول : «تلك المرحلة الاخيرة التي تنشدها الآداب العالمية » والفكر الانساني واجتماعية الحياة .

وماذا يضير ادب الشمول هذا انه لم يبلغ المحجة منذ الوثبة الاولى ؟ انه نزوع ؛ والنزوع توق وإرادة ثم سير وتطور . هو جري مصرّ دائم متسارع على سبليةٍ تقدمية صاعدة منتشرة وجهتها الشمولية ؛ ومرحلية يخطها التطور النافذ الفعال ويدركها الوعي والتصور على قدر ما يتاح له من يقظة واستيعاب ويعبرّ عنها الادب والفن على قدر ما يؤتى لهما من روعة ودقة وإفصاح . كل يعبّر عنها بالصورة التي تتلاءم وحقل اختصاصه وطبيعته . فالفكر إذاً هو الينبوع الذي يستمد منه الادب والفن مادّة التعبير . والكون والحياة والمجتمع هي الحضم الواسع الذي يرسل الانجرة ويموج بالسحب وينهمر بالغيث الى الينابيع لئلا تشح او ينضب معينها .

بهذا المعنى وبمحتوى ذلك المفهوم التطوري الاقصى، يمكننا ان نذهب الى الانضواء ردهة تحت راية « تدبير منزلنا » و « التزام » تأليب مجتمعنا حول إنهاء معضلات المحيط الملحة ، من اقتصادية وسياسية واجتماعية . لكيما يتسنى لنا من بعدها النهوض بانفسنا وبمجتمعنا من وحول « الواقع المعتم » الى آفاق نيرة والى اهداف واضحة والى سبلية قويمة ومرحلية منتظمة لا تشرد الحلقات والسلاسل منها الى تيه عنيد. ولا يذهب الانسان فيها ضحية للصراع المحتدم بين خلاصات ضيقة للواقع الادراكي قد تخطتها الحياة جميعاً الى واقع تطوري لا يعرف الركود .

داود جرجس درويش